من أعلام الإسلام

ساعات مع

عمر بن الخطاب

د. عبد الحليم عويس

مصطفى عاشور

دار الاعتصام

من أعلام الإسلام

ساعات مع

عمر بن الخطاب

عبد الحليم عويس

مصطفى عاشور

دار الاعتصام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذه رحلة قصيرة تصحب فيها عمر بن الخطاب ، وتعايشه جاهليا ومسلما ، وترافقه فى صولاته وجولاته ودورياته الليلية .. وتشهد معه معاركه ضد معاقل الشرك ، ووقوفه أمام قوى الظلام والاستبداد .. ثم تراه خليفة نموذجيا يطبق روح الاسلام ، ويرسى دعائم الدولة الاسلامية المترامية الأطراف ..

والكتاب ليس بحثا أكاديميا ولا سردا تقليديا للحوادث ، وانما هو مجموعة من اللقطات العمرية أعطيناها ما تستحقه من الضوء ، وأبرزناها فى اطارها الصحيح ، وربطنا بينها وبين ما نواجه من مشكلات يومية تقف أمامها عاجزين ، فى الوقت الذى أوجد لها عمر بن الخطاب امثل الحلول منذ اربعة عشر قرنا ! ..

والآن نتركك تبدأ الرحلة مع هـــذا العملاق ونحن نعتقد أنك ستتساءل معنا فى النهاية .

هل يمكن أن تتكرر هذه الشخصية مرة أخرى ؟ !.

المؤلفان

همسة بين يدى عمر

سنعيش مع السطور القادمة يا عمر .. سنتعرف عليك من خلال كلماتك وأعمالك .. سنشم بعض الورود التى غرستها فى حقل الاسلام .. وانت يا عمر كنت رجلا يحسن الثورة على نفسه .. ويحسن الثورة على التبلد والخضوع والضياع . اننا نتخيلك ياعمر وانت تقول لنفسك عندما أعياك أن تعرف معنى كلمة من كلمات القرآن ؟ !.. اننا نتخيلك كذلك وانت تقول فى جمع حافل من الناس : « أصابت امرأة واخطأ عمر .. » ونحن ياعمر قد تكلمنا .. وأخذنا منك .. وأخرجنا عنك كتبا وأسفارا .. ولكنا بعد لم نوفك حقك ..

لقد كنت تقول لنفسك أمام الناس :

« كل الناس أعلم منك يا عمر » .

نعـــم :

كل الناس أعلم من عمر .. عمر الذى ظل أغنية سماوية فى أفواه الناس ــ مسلمين وغير مسلمين ــ على امتداد أربعة عشر قرنا من الزمان .. عمر الملهم والمجتهد ، عمر هذا .. كل الناس أعلم منه ؟ !

لكن ناسا من الذين جاءوا بعد عمر لم يصنعوا شيئا ، ولا يمكن أن يقارنوا بعمر الهاما وعدلا ورعاية للمحكومين .. بل انهم لا يمكن أن ينسبوا الى العدل أو الالهام ، أو صنع الدويلات .. لكن هؤلاء النـــاس مع كل ذلك جعلوا من أنفسهم علماء ومكتشفين لنظريات ، وعباقرة ، بل انهم ارتكبوا أكبر جريمة حينما زعموا انهم مخترعو مبـــادىء ، وجعلوا من أسمائهم مذاهب جديدة يتجه اليها التائهـــون والحائرون .. ما أعظمك يا عمر .. لم تجامل على حســـاب الحق يوما .. حتى زوجتك وأولادك واجهتهم بالحق حين خيل اليك أنهم انحرفوا عنه ..

ومع ذلك فكل الناس أعلم منك يا عمر ؟ !.

لقد شغلت نفسك بأشياء يترفع صغار الموظفين عن شغل أنفسهم بهـــا نظرا لمهامهم الأخرى الجسيمة .. لقد شغلت نفسك بأمر اللبن حتى تضمن سلامته من الخلط بالماء .. وبالطفل الذى يبكى .. ربما لان عمر لم يخصص له راتبا من بيت المال يكفى للحصول على اللبن الذى يحتاجه .. وبالعجوز تخدع أطفالها بالماء الذى يغلى بالقدر حتى يناموا .. وتحمد الله وتشكره .. وتشكو عمر الى الله .. فلا تقف مكتوف اليدين بل تسارع الى حمل الدقيق على ظهرك اليها .. ثم تشاركها فى صنع الطعام .. وايقاظ الاطفال ..

والأهم من ذلك أنك لم تأمر بحبسها .. ولم تنهرها ،

أو تعطها درسا فى الدبلوماسية .. أو تحاول أن تقنعها بأنك لا تملك الوقت لأمثالها ..

اسمح لنا يا أمير المؤمنين أن نتركك تتكلم .. فلربما استطعت أن تصحح مفاهيمنا .. وأن تبعث فى أحفـادك روحا جديدا ..

نسبه وصفته

نريد أولا أن نتعرف هذه الشخصية ، وقبل أن نغوص فى أعماقها .. ونعيش معها الأحداث والتاريخ .. فالى اى قبيلة انتسبت ؟.. ومن أى شجرة تفرعت ؟.. وما الملامح المميزة لهذه الشخصية ؟ .

وانطلاقا من هذه الاسس نقول : ان رجلنا هو عمر بن الخطاب من بنى عدى .. كنيته أبو حفص .. أبوه : الخطاب ابن نفيل بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى .. وأمه : حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ..

وهو من العشرة المبشرين بالجنة .. أسلم بعد خمسة وأربعين رجلا واحـدى وعشرين امرأة .. وهـو أول من حمل لقب أمير المؤمنين ..

وأما ملامحه فقـد وصفه الذين رأوه بأنه كان طويلا

القامة .. مفرطا فى الطول .. ضخم الجثة .. أصلع الرأس. أبيض البشرة .. تعلو وجهه حمرة .. اذا تكلم أسمع .. واذا مشى أسرع .. يصفر لحيته ويرجل رأسه بالحناء .. وكان سريع البكاء اذا جاشت نفسه بالخشوع بين يدى الله وأثر البكاء فى صفحتى وجهه حتى كان يشاهد فيهما خطان أسودان .

عمر فى الجاهلية

يمكن تقسيم حياة عمر الى فترتين : فترة ما قبل اسلامه ، وفترة ما بعد اسلامه .. أما الاخيرة فسيأتى الحديث عنها فى الفصول التالية ، وأما الأولى وأعنى بها حياة عمر فى الجاهلية فهذه هى موضوع حديثنا الآن .

وحياة عمر فى الجاهلية لا تختلف كثيرا عن حياة أولئك الذين قرأنا عنهم فى الشعر العربى القديم .. فعمر كان مولعا بالخمر .. محبا للشراب .. يصارع أقرانه فى الاسواق .. ويتغزل بالحسان .. شهد سوق عكاظ .. وسمع من شعرائها .. وردد أشعار الجاهليين .. وعبد صنما من عجوة .. فلما جاع أغرته نفسه بأكله .. فأكله .. ولما شب عمر واستوى عوده هفت نفسه الى الزواج فتزوج .. وكان تحته تسع نسوة ولدن له اثنى عشر ولدا .. ثمانية بنين ، وأربع بنات .. ومن أزواجه : أم كلثوم بنت على كرم الله وجهه ، ومن أولاده : حفصة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعبد الله بن عمر رضى الله عنهما ..

وعمر كان من القلة الذين تعلموا القراءة والكتابة فى طفولته .. وقد هيأت له مكانة قبيلته أن يكون سفيرا لقريش .. فكان ينوب عنهم فى المنافرات والمفاخرات والمعاهدات ..

ولم يكن غريبا أن يكون عمر من أشد المناوئين للدعوة المحمدية ابان ظهورها .. فقد كان قبليا متعصبا .. يرى أن دعوة محمد قد فرقت أمر قريش ، وزعزعت وحدتها ، وفرقت كلمتها .. ومن ثم فقد حارب الدعوة وبالغ فى ايذاء أصحاب الدين الجديد .. وكانت له جارية مسلمة يسومها سوء العذاب ، ويظل يضربها حتى يتعب ويمل ..

ولم يكن غريبا أيضا أن تذهب قسوة عمر وجراته الى حد التفكير فى قتل صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم .. لولا ان حساباته وقياساته رات أن نتيجة هذا الأمر لن تكون محمودة العواقب .. كل هذا حدث من عمر .. ، ولم تكن نفسه تساوره يوما بما خبأته له العناية الالهية ، وبأنه سيكون الرجل الذى يحمل الرقم : « ستة وستين » فى عداد الذين يدخلون الدين الجديد .. وبأنه سيكون الرجل الذى سيصنع اعظم دولة عرفها التاريخ .. وسيبنى أعظم حضارة عرفها البشر ..

***

أحب الرجلين إلى الله

في ساعة من ساعات الضيق والحرج رفع النبي صلوات الله تعالى وسلامه عليه يده الى السماء قائلا : ((**اللهم أعز الاسلام بأحب الرجلين اليك ، بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام**)) (أبو جهل) وكأن النبي — صلى الله عليه وسلم — قد أحس بأن أحد الرجلين يمكنهما أكثر من غيرهما أن يقدما للاسلام شيئا عظيما

وكان عمر أحب الرجلين الى الله ..

وتبدأ قصة اسلام عمر ..

. خرج عمر يوما متوشحا سيفه .. فلقيه رجل من بني زهرة فسأله : الى أين ياعمر ؟ فقال : اريد ان أقتل محمدا هذا الصابىء الذى فرق قريشا وسب آلهتها .. فسأله الرجل أتظن أن بني هاشم وبني زهرة تاركوك وقد قتلت محمدا ؟ أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ فقال عمر : وأى أهل بيتي ؟ فأجابه الرجل : أختك فاطمة وزوجها سعيد ابن زيد فقد أسلما والله ، وتركا دينك الذى أنت عليه ...

... وأصابت كلمات الرجل مقتلا من عمر .. ان عمر القوى الذى يقول فيسمع الناس ويطيعون ، يضرب من

الخلف .. وعمر الذى كان بصدد انقاذ قريش من هـذا .. الصابىء الذى سب آلهتها وفرق كلمتها المجمعـة على الباطل .. عمر هذا يكتشف أن بيته ــ هو ــ فى حاجة الى انقاذه ..

واتجه عمر الى أخته .. ليصطدم عمر الرهيب .. لأول مرة بالقـرآن .. ليصطدم بالايمان القوى الذى يتمكن من النفوس فيحولها الى طاقات أكبر من أى قوة أخـرى .. ولتصطدم الجاهلية بكل عتوها ممثلة فى عمر بالايمان الذى كان لازال فى مكة ناشئا غضا يحتمى بجنح الظلام ، وجدران دار الارقم بن أبى الارقم النائية البعيدة عن عيون المشركين ..

وكان لقاء ! ! ..

كان الثلاثة يقرأون القرآن .. يتدارسون الدين الجديد الذى هز أعماقهم عاطفة وفكرا .. فاطمة أخت عمر وسعيد زوجها .. وضيفهما المسـلم خباب بن الأرت .. وسمع همهمتهم .. وتحقق ما كان وهما .. وتجمعت كل جحافل الجاهلية فى نفس عمر .. وطرق الباب .. وأحس خباب ذلك المسكين بأن الطارق عمر .. أحد جبابرة مكة فسـارع الى مخبأ اختبأ فيه .. ودار حوار صغير .. اكتشف عمر بعده أن أخته مسلمة .. صبأت عن دين الآباء والاجداد .. وبلا وعى وثب على زوجها سعيد فبطش به .. واندفعت فاطمة تدفع أخاها عن زوجها .. وأصابتها لطماته المتتالية فأدمت وجهها .. وصرخت فى وجهه متحدية : نعم قد أسلمنا ، وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك ..

وانهار عمر .. عمر الذى كان يخيف مكة .. ينهزم أمام أخته وزوجها .. لم ينهزم عمر أمام الدم الذى سال من أخته ، ولا من آثار الضرب التى ظهرت على وجهها ــ كما يقول المؤرخون ــ بل انهار أمام العقيدة القوية القاهرة التى جعلت أخته تتبجح فى وجهه .. وتحول الاسد الضارى الى حمل وديع يطلب فى هدوء الصحيفة التى كانا يقرآن فيها .. وترفض فاطمة .. فالمشرك نجس .. والقرآن لا يمسه الا المطهرون .. ويخضع عمر لاوامر المسلمة القوية ويغتسل .. وتقع عينه على قول الله تعالى فى سورة طه : « **انه أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى** » .. وتكاد أنفاس عمر تهدأ .. وهنا يبرز خباب من مكمنه ليقول لعمر .. ياعمر انى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فانى سمعته بالامس يقول : ((**اللهم أيد الاسلام بأبى الحكم بن هشام** (أبو جهل) **أو بعمر بن الخطاب**)) وعند ذلك استسلم عمر .. وذهب الى دار الارقم يخلع عنه رداء الجاهلية .. وليقول للرسول صلى الله عليه وسلم فى استسلام وباقتناع : جئتك لأومن بالله ورسوله ، وبما جاء من عنــد الله .. فكبر رســول الله صلى الله عليــه وســلم .. وكبر المجتمعون عنــده ...

وينتهى الصدام .. ويبدأ عمر مسيرة جديدة .. فى ظل منهج عظيم للحياة ، وفى ظل معنى جديد خالد لوجود الانسان على الأرض ولخلافته عن الله فيها ..

* * *

عمر في مكة

الدور المكي في حياة عمر دور حافل بالمواقف الكاشفة عن أعماق القوة والصلابة والالهام التى تتمتع بهـــا هذه الشخصية الفذة .

ولم يكن عمر ليقبل استمرار هذا الوضع القلق الذى يعيشه المسلمون فى مكة .. لقد اعتاد عمر أن لا يضمر شيئا ويظهر شيئا آخر .. فلماذا اذن يخفى المسلمون اسلامهم .. أليسوا على الحق ان عاشـــوا ، وان ماتوا .. فلماذا اذن لا يصدعون بالحق .. وصارح عمر الرسول صلى الله عليه وسلم بما يجيش فى صدره بقوله : يا رسول الله ..

— ألسنا على الحق ان متنا وان حيينا ؟ ..

— بلى والذى نفسى بيده انكم على الحق ان متم ، وان حييتم ..

— ففيم الاختفاء اذا ؟ .. والذى بعثك بالحق لتخرجن.

وسكت صلوات الله وسلامه عليه علامة الموافقة ..

وما لبث ان خرج المسلمون يقودهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى صفين احـــدهما فيه عمر والآخر فيه حمزة ، لهما كديد كأنه كديد الطحين (تراب تحدثه الأرجل) فدخلوا المسجد وقريش تعلوها كآبة فلا يجرؤ سليط منهم ولا حكيم أن يقترب من صفين فيهما هذان ..

ونجح العرض العسكرى الاسلامى الأول .. واحس المسلمون بأن لهم كيانا وبأن عهدا جديدا قـــد بدأ يفتح لهم نوافذه فى مكة ..

* * *

ولم يقف اثر اسلام عمر فى مكة عند حد خروج المسلمين الى حيز الظهور ، وانما تعداه الى مجالات أخرى كثيرة اسهم عمر فيهـــا بجهد وافر .. فقد أصبح الآن يدعو الى الاسلام علانية .. وتجرأ كثير من الذين هفت قلوبهم الى الاسلام على أن يدخلوا فيه .. واضحى المسلمون يجلسون حول البيت حلقا معلنة عن نفسها فى ثقة واصرار ..

وتقدمت قريش خطــوة .. فرأت ضرورة المقاطعـــة الجماعية .. فتحمل عمر نصيبه منها .. وسار عمر هكذا فى مكة .. داعيا للاسلام وحارسا للمسلمين .. ومثيرا لمشاعر المشركين بجهره بكل ما يعمـــل .. وختم عمر مواقفه المكية بتلك الوقفة الخالدة .. حين قرر الهجرة .. فلم يشأ أن يستتر فى جنح الظلام ، وانما تقلد سيفه ومضى الى الكعبة وقريش بفنائها .. فطاف بالبيت سبعا ثم وقف وقال :

شاهت الوجوه .. من أراد أن تثكله أمه وييتم ولده .. وترمل زوجه فليلقنى وراء هذا الوادى .. فلم يجرؤ أحد ..

ولم تمض الا ليال قلائل حتى خرج عمر من مكة ليلا فى صحبة عياش بن أبى ربيعة ميمما شطر المدينة ..

وطويت صفحة الدور المكى من حياة عمر .. وبدأت صفحة جديدة أتاح لها القدر أن تتألق أكثر وأكثر ..

فى موطن الهجرة

وفى المدينة تجلت عظمة عمر .. لقد أصبحت المدينة مجتمع الاسلام القوى .. الدنيا الفاضلة التى لا مكان فيها للخوف ولا للعمل فى جنح الظلام .. ليتقدم كل مخلص بمواهبه .. وتقدم عمر .. تقدم بمواهبه الفريدة التى غير الاسلام مجرى عملها .. وقام بواجب الجهاد ببدر ، وتبرع فقتل خاله العاص ابن هشام بن المغيرة ..

فهذا الدين لا يعرف ودا الا ود العقيدة .. ولا ولاء الا لها .. وفى « أحد » قاوم عمر خالد بن الوليد حين التف يريد قتل الرسول صلى الله عليه وسلم .. فقاتله عمر باستماتة حتى رده هو ومن معه ، وفى كل مواقع الاسلام الاولى كان عمر من جنود الصف الاول يؤدى دوره باخلاص وأمانة .

وفى المدينة لم يك عمر مقاتلا فحسب .. وانما كانت له جولاته الاخرى السلمية التى كشفت لنا ، وللتاريخ ، عن مواهبه التى اعتبره كثيرون من أجلها نغمة نشازا فى تاريخنا الاسلامي .. فعمر رائد الاجتهاد ، لا لان عمر يستطيع اختلاق أحكام من عنده ، بل لان عمر ذو حس اسلامى راق يستطيع أن يستبطن حقائق الامور .. وعمر صريح قوى .. لا يرى الرحمة فى غير موطنها ولا العفو فى غير موضعه ..

وانما يرى أن يكون لكل شيء وقته .. ولذا فقد صدقت فراسة عمر فى مواقف كثيرة .. لأنه استطاع أن يجمع فى نفسه بين العدل والرحمة دون أن يترك لواحدة منهما فرصة التغلب على الأخرى ..

وعمر كان المستشار الثانى للرسول صلى الله عليه وسلم . لكنه كان مستشارا صريحا لا يداهن ، ولا يجامل .. بل يحتد فى الحديبية ويدلى برأيه فى شجاعة .. ويرى فى أسرى بدر رأيا عادلا وقويا ، لا رحمة فيه ولا مجاملة ..

وأخيرا .. فلا عجب أمام هذه الموهبة العمرية أن يجعل الله الحق على لسان عمر كما أخبر الصادق عليه الصلاة والسلام .

أمير المؤمنين

بسياسة واضحة صريحة بدأ عمر خلافته .. واستهل عهده بخطبة لخص للناس فيها سياسته فى كلمات محدودة لا لبس فيها ولا غموض : « اننى كنت مع رسول الله فكنت خادمه ، وكان من لم يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان كما قال الله : ((**بالمؤمنين رءوف رحيم**)) فكنت بين يديه سيفا مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى .. فلم أزل مع رسول الله حتى توفاه الله وهو عنى راض ، والحمد لله على ذلك كثيرا وأنا به أسعد .. ثم ولى أمر المؤمنين أبو بكر فكان

من لا تنكرون دعته وكرمه ولينه ، فكنت خادمه وعونه .. أخلط شدتى بلينه ، فأكون سيفا مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى .. فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى راض . فالحمد لله على ذلك كثيرا وانا به أسعد ..

ثم انى قد وليت عليكم أيها الناس .. فاعلموا ان تلك الشــدة قد أضــعفت ، ولكنها انما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين .. فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا الين لهم من بعضهم لبعض .. ولست أدع أحدا يظلم احدا ، او يتعدى عليه حتى اضع خده على الارض ، واضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن بالحق . وانى بعد شدتى تلك اضع خدى على الارض لاهل العفاف واهل الكفاف .

لكم على الا أجتبى شيئا من خراجكم ، ولا ما افاء الله عليكم الا من وجهه .. ولكم على اذا وقع فى يدى الا يخرج منى الا فى حقــه .. ولكم على أن أزيد عطاياكم وارزاقكم ان شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم ، ولكم على الا القيكم فى المهالك ، ولا اجمركم(١) فى ثغوركم ، واذا غبتم فى البعوث فأنا ابو العيال ...

فاتقوا الله عباد الله واعينونا على انفسكم بكفها عنى ، وأعينونى على نفسي بالامر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، واحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم » ..

---

(١) تجمير الجيش : تجميعه وحبسه فى الثغور .

عهد من عمر على نفسه .. وثقة من الأمة فى قائدها .. وبين هذين توالت الاصلاحات الداخلية والانتصارات الخارجية .. ومشى الرجل المسلم من صنعاء الى مكة آمنا لا يخشى على نفسه الا الله أو الذئب ..

وعن طريق الارتباط أمام الناس بمنهاج محدد نابع من القرآن ، وعن طريق المراقبة الدائمة للنفس حكم عمر الدنيا .. حكمها حين حكم نفسه وهواه .. وحكمها حين عرفها أن الحكم بلاء وامتحان .. وليس قصورا جميلة ولهوا واستبدادا .. ! !

لقد كان عمر مثال الحاكم المسلم .. استطاع أن يمسك بميزان العدل دون ان يختل الميزان فى يده .. ومنذ أن تولى الحكم بدأ بعزل خالد بينما ميدان الحرب كان فى حاجة ماسة اليه خوفا من أن يفتتن المسلمون به ، وخوفا من أن يفتتن خالد بنفسه .. وهذا قمة الحزم الذى أراد عمر من ورائه اظهار حقيقة مهمة هى أن الاسلام ينتصر بمبادئه أولا قبل أن ينتصر بشجاعة الذين يؤمنون به أو بمواهبهم الخاصة .

.. ومع عمرو بن العاص حدث نفس الشىء .. اذ استدعاه وابنه من مصر انتصارا للمصرى الذى جاء يشكو الحيف من ابن عمرو الذى سابقه فسبقه المصرى فضربه ابن عمرو ظلما وقال له : كيف تسبق ابن الأكرمين .. وقال عمر للمصرى على ملا من الناس : اضرب ابن الأكرمين .. ثم قال لعمرو وابنه كلمته الخالدة : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ..

هكذا كان شأن عمر مع كل عماله وولاته – حتى تمكن من اغلاق سبل الانحراف فى وجوههم ..

وكان يحدد علاقته وسياسته مع عماله بقوله للناس : « أيها النـاس : انه والله ما أرسلت اليكم عمـالا ليضربوا ابشاركم ، ولا ليأخـذوا أموالكم ، ولكن أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه الى فوالذى نفسى بيده لأقصنه منه .. » .

.. وهى ظاهرة خطـيرة اذ أن عمر بهـذا قد حول الجماهير المسلمة الى رقابة عملية على الحكام ، وفتح الطريق أمام النقد البناء ، ولن يستطيع الحاكم – فى ظل سياسة كهذه – أن يرهب الناس بمنصبه ، أو يحجبهم عن اظهار الحق ، ورفع الشكاوى العاجلة والمباشرة للحاكم العـام (عمر بن الخطاب) ..

وبين الفينة والفينة كان عمر يتعهـد حكامه بشىء من الترغيب والترهيب ..

كان يقول لهم : « اجعلوا الناس عندكم سواء قريبهم كبعيدهم ، وبعيدهم كقريبهم .. اياكم والرشا (جمع رشوة) والحكم بالهوى ، وأن تأخذوا الناس عند الغضب ، فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار .. » .

ومن وصاياه لهم : « لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تجمروهم (تحبسوهم) فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم .. » .

وكان اذا استعمل رجلا كتب له عهدا وأشهد عليه

رهطا من المسلمين واشترط عليه ألا يركب برذونا (حصان) ، ولا يأكل نفيسا .. ولا يتخذ بابا دون حاجات الناس ..

.. والعزل والعقاب هو مصير كل من تسول له نفسه مخالفة العهد الذى أخذ عليه ..

فبينما كان عمر فى احدى جولاته سمع رجلا يشكو احد الولاة .. فلما تأكد له صدق شكاته .. أرسل الى الوالى .. فلما حضر أعطاه عصا وجبة صوف .. وغنما .. وقال له : « ارعها .. فان أباك كان راعيا .. » .

.. وكان عمر حاكما فعليا مباشرا للمدينة .. ومن خـلال حكمه المباشر كان يضرب لعمـاله المثل الاعلى فى الحكم .. ويضرب للتاريخ الذى لا يزال يتغنى به النموذج الكامل للحاكم المسلم ..

نعم .. فى المدينة ظهرت شخصية عمر الخليفة أمير المؤمنين ..

عمر فى المدينة

أقام عمر فى المدينة حكومة مثالية كبرى بهرت أنظار التاريخ والمؤرخين .. فقد كان عمر يرعى أحوال المسلمين الخاصة والعامة ضاربا بذلك أروع الأمثلة للحكام الذين يظنون أنفسهم أكبر من مشكلات الجماهير السطحية العابرة ..

يعس بالليل يتحسس أحوال الرعية ، ويتفقد أخبارهم ، فتكون جولاته تلك خيرا وبركة للمسلمين .. وانه ليسمع امرأة فى جنح الليل تشكو غياب زوجها وتترنم :

فوالله لولا الله تخشى عواقبه
لزلزل من هذا السرير جوانبه

فيسأل : كم تصبر المرأة على زوجها ؟ فلما يعلم أن أربعة أشهر هى أقصى صبر المرأة على زوجها — يأمر بألا يغيب رجل عن أهله فى الجهاد أكثر من هذه المدة ..
ويسمع قصة بائعة اللبن وحوارها مع ابنتها التقية .. وكيف نهت البنت أمها عن غش اللبن محتجة : انه اذا كان عمر لا يراها فان رب عمر يراها .

ويسمع أنينا ينبعث فى الليل من صبية يتضورون جوعا .. يتحلقون حول عجوز .. والعجوز تدعو على عمر وتشكوه الى الله .. فيحمل لها الدقيق والزيت على ظهره ويأبى أن يحمل عنه أحد ذلك بحجة أن أحدا لن يحمل عنه ذنوبه يوم القيامة .. ويجوع عمر فى عام الرمادة كما يجوع الناس ..

وعمر أيضا كان عادلا : يحب العدل ولو على نفسه ..

اشترى عمر حصانا .. وسار به بعيدا عن البائع وركبه ليجربه .. فأصيب الحصان بعطب .. فساورته نفسه بارجاعه ظنا منه أن البائع خدعه فيه لكن البائع رفض قبول الحصان من أمير المؤمنين .. وماذا يفعل أمير المؤمنين أمام

هــذا الرجل المشاكس ؟ هل يأمر باعتقاله ؟ هــل يلفق له تهمة ؟ .. أبدا : لقد قدم فى حقه شكوى .

لكن الرجل المشكو أصر على أن يختار هو القاضى ... واختار فعلا « شريحا » القاضى المشهور بالعدل .

ووقف أمير المؤمنين فى قفص الاتهام ..

وصدر الحكم ضد عمر وفقا للقانون ، ونطق به شريح القاضى المشهور بالعدل قائلا لعمر : خذ ما ابتعت .. أو رد كما استلمت .

ويقول عمر مسرورا وهو ينظر الى شريح :

« وهل القضاء الا هكذا .. » .

ثم لا يأمر بسجن القاضى ، ولا باتهامه بالعمالة ... وازعاج أمن الدولة .. وانما يعينه قاضيا على الكوفة ...

وعندما وصلت أقمشة يمنية ووزعت على المسلمين عدلا ومساواة .. ولبس عمر ثوبا أكبر من حقه ، ولمس المسلمون ذلك لان الأشياء كانت توزع علانية .

.. وصعد عمر المنبر يخطب الناس ويحثهم على الجهاد مرتديا هذا الثوب .. وقال لهم :

« اسمعوا واطيعوا .. » .

فلا يصله دوى من التصفيق الحاد والملتهب ، وانما يصاعد اليه صوت قوى يقول :

لا سمع ولا طاعة ..

ولا يتقدم فى هذا الموقف عشرات الجنود المدججين بالسلاح فيغمرون هذا المتبجح بسيل من اللكمات والصفعات. لكن الجو يهدأ .. ويلتقط الحاضرون أنفاسهم فى هدوء ويقول عمر :

« لماذا يرحمك الله ؟ » .

فيقول الرجل بنفس الجرأة والثقة : أخذت من القماش مثلما أخذنا .. فكيف فصلته قميصا وأنت أطول منا .. لابد أن هناك شيئا خصصت به نفسك ..

.. ويدافع عمر عن نفسه .. وينادى على ابنه عبد الله كشاهد نفى .. ويعلن عبدالله أنه تنازل عن نصيبه لأبيه حتى يمكنه أن يحصل على قميص كامل يتمكن به من ستر العورة والاجتماع بالناس ..

ويجلس الرجل فى هدوء من جديد وهو يقول : الآن نسمع ونطيع ! ! .

وعمر الواعظ عالم نفس ، يعيش بكل أعماقه مشاكل الناس وآمالهم .. لا يتخذ من المنبر مكانا ليملى منه كلماته وآرائه ، وانما يتخذ منه ميدانا لمناقشة القضايا والاسترشاد فيها بآراء الآخرين ..

.. وينهى عمر الناس عن أن يغالوا فى المهور ..

وتتصدى له امرأة وتفحمه بالحجة القاطعة التى لا يملك ازاءها الا التسليم وتقول له : كيف فاتك يا عمر قول الله :

(وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطـارا فلا تأخـذوا منه شيئا أتأخـذونه بهتانا واثمـا مبينا) .

فالله قد ذكر القنطار كمقدار يمكن أن يدفع للعروس — كمثال — فمن أين لعمر منع المغالاة فى المهور ؟..

وسكت عمر .. نعم سكت عمر أمام منطق هذه المرأة ولم يقل عمر كما قال الجاهليون : « لو ذات سوار لطمتنى » كبرا وصلفا وغرورا .. وانما وعلى سمع من الأمة ، بل وعلى سمع من التاريخ .

قال عمر لنفسه وللناس :

« أصابت امرأة وأخطأ عمر .. كل الناس أعلم منك يا عمر .. » .

فأين عمر هذا .. من هؤلاء الذين يجعلون من أنفسهم أساتذة التاريخ البشرى ، ويحاولون جهدهم تطويع حركة التاريخ لارادتهم وأهوائهم .

.. الا من لهؤلاء بعمر ، وبدرة عمر رضى الله عنه .. !

* * *

عمر الجندى

منذ وطئت اقدام عمر المدينة وهو يحتل مكانه فى صف الجيش الاسلامى كجندى باسل .. ومكان عمر فى الغزوات والسرايا الاسلامية هو مكان أى جندى اسلامى فى الجيش الاسلامى .. فالجيش الاسلامى لم يعرف هذه الفئة المحترفة للحرب .. وكثيرون قد يتساءلون : أين مكان عمر فى الغزوات الاسلامية ؟ ولماذا لا نراه بارزا مثل خالد بن الوليد مثلا .. وهؤلاء ينسون عدة حقائق فيما يتعلق بطبيعة تكوين الجيش الاسلامى الاول .. وفيما يتعلق بشخص عمر ذاته ..

.. الجيش الاسلامى جيش لا يعرف امتيازا لفرد لمجرد أنه فلان من الناس .. ذلك أنه جيش يمثل مبادىء تنتصر بذاتها على أيدى مجموعة اختارها الله .

فعندما مات زيد بن حارثة أصر ابو بكر على ارسال ابنه أسامة بن زيد — اتباعا للنبى صلى الله عليه وسلم — قائدا للجيش .. مع ملاحظة أن أسامة هذا كان حدث السن لا يزيد عمره عن عمر شاب فى الثانوية العامة !.

.. ولنفس السبب عزل عمر خالدا عن مجال القيادة خشيته أن يفتتن الناس به ويظنون أن النصر يكون على يديه

وحده فحسب .. فالجيش الاسلامى جيش قيم ومثل يعيش بها ويناضل من أجلها ويموت عليها .. ووسط هذه المبادىء يفنى الشخص وتذوب كل معانى الارضية فيه .. وترتفع بالتالى قيمته الانسانية .. وعمر كان شيئا مهما بالنسبة للتاريخ الاسلامى كله . ليس باعتباره أكثر من مسلم مخلص .. وانما باعتباره مسلما مخلصا أدى دوره على أكمل وجه .. تماما مثل أبى ذر فى موقعه ، ومثل خالد فى مكانه وموقعه ، ومثل الصديق ومثل على .. كذلك .

فى بدر قتل عمر « العاص بن هشام » .. وكان لعمر رأى مشهور فى أسرى بدر .. كما كان لابى بكر رأى مضاد له ..

وفى أحد كان عمر من المحيطين بالنبى صلى الله عليه وسلم .. وعندما حدثت خطيئة الرماة كان عمر تائها وسط الفوضى التى سادت صفوف المسلمين .. وعندما وصل الى النبى صلى الله عليه وسلم كان هو الرجل الذى اختاره ليرد على أبى سفيان قوله « أعل هبل » .. فكان عمر يقول له : « الله أعلى وأجل » .

وبعد أحد استشاره الرسول صلى الله عليه وسلم فى معاودة قتال قريش بعد أن سمع برغبتها فى العودة لقتاله .. فأشار بالعودة لقتالها .. لكنها تراجعت وانسحبت .

وبعد أحد استشاره الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه وقال لهم : « **يطلع عليكم رجل من أهل الجنة** » ــ

فاذا هو ابو بكر ، ثم قال : **« يطالع عليكم رجل آخر »** .. فاذا هو عمر .

وفى غزوة « بدر الموعد » التى كانت سنة أربع هجرية كاد المسلمون يتخاذلون عن الذهاب لولا مجىء ابى بكر وعمر وقولهما للرسول صلى الله عليـــه وسلم : ان الله مظهـــر دينه ومعز نبيه ، وقد وعدنا القوم موعدا ونحن لا نحب أن نتخلف عن القوم فيرون أن هذا جبن .. فسر يا رســـول الله .. ففرح الرسول صلى الله عليه وسلم واستجاب لهما وقال للمسلمين :

« والذى نفسى بيده لاخرجن وان لم يخرج معى أحد » فخرج المسلمون وراءه .

ونمضى فى موكب التاريخ الاسلامى البطولى نتتبع عمر فنراه فى كل موطن يغيظ الكفار من اشد الاقدام الاسلامية وطأة على المشركين .

نراه فى غـــزوة المريســـيع من الفرســـــان العشرة المهـــاجرين .. ونراه الرجل الذى ينادى المشركين : قولوا « لا اله الا الله » تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم .. وذلك بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان بنو المصطلق قـــد وارسلوا رســـولا فى غزوة المريسيع هـــذه كجاسوس على المسلمين . لكن عمر تمكن من القبض عليه وقتله .

ويمكنك ان تتبع فى الخندق ، وفى الحديبية ، والفتح ،

وحنين حركة عمر بن الخطـــاب .. وستراه فى كل موقع جنديا مخلصا ومسلما بطلا ، لا يصنع لبطولته تمثالا من ذهب أو فضة .. ولا يكتب عن بطولته كتابا يستعرض فيه عضلاته الكلامية .

والآن نعود الى سؤالنا ، وهو : لماذا لم يبرز دور عمر فى غزوات النبى صلى الله عليه وســـلم وسراياه مثلما برز دور خالد ؟ .

والاجابة على ذلك سهلة وموجزة .

ان عمر كان رجلا ذا رأى ، وكانت له خبرة فى السياسة اكتسبها من احتكاكهبالقبائل عن طريق السفارات والمشاورات ومجالس الصلح التى كان ينوب فيها عن قريش ، وفوق ذلك فهو رجل قوى الشخصية وقد جعل الله الحق على لسانه .. لهذا استبقاه الرسول صلى الله عليه وسلم بجانبه ليستعين بصراحته وجرأته وحسن رأيه .

والسؤال الآن : هل يضير القائد المحنك أن يكون بارزا فى التخطيط والسياسة أكثر من بروزه فى ميدان القتال وفنون الحرب ؟ .. وهل يمكن أن ينتقص أحد من قدر « سعد بن أبى وقاص » فى القادسية مثلا مع انه كان يقود المعركة من فوق سرير المرض ! .

.. على ان التاريخ مع ذلك كله قد حفظ لعمر دورا كبيرا من الكفاءة القتالية على كل المستويات .. الفردى والجماعى .. وتوجيهاته العســـكرية لقواده خـــير دليـــل على ذلك .

.. رحم الله الجنـــدى الباسل عمر بن الخطاب .. جندى بدر وأحد وغيرهما ، والمستشار العسكرى والسياسى للرسول صلى الله عليه وسلم .

* * *

مؤسس الدولة الاسلامية الكبرى

نستطيع أن نقول دون تحفظ ان عمر بن الخطاب له دور كبير فى تكوين الدولة الاسلامية الكبيرة . ففى عهد عمر الذى لم يمتد حكمه أكثر من عشر سنوات الا قليلا ، أتم المسلمون ضرب أكبر قوتين فى الأرض وهما قوتا الفـــرس والروم .. فأما عن الفرس فقد تمكن المسلمون من خـــلال معارك القادسية ودخول المدائن ، وموقعة نهـــاوند التى تسمى « فتح الفتوح » .. تمكنوا من خلال هذه المعارك من قصم ظهر فارس ، فلم تقم للفرس بعد ذلك قائمة .

.. وفى الدولة الرومانية تمكن المسلمون من فتح بلاد الشام واستولوا على دمشق والقدس ومصر وطهرت الأردن من فلول الروم .

وبذا تم تطويق دولة الروم التى ظلت تعيش بجنـــاح واحد بعد ذلك حتى جاء « محمد الفاتح » .. فقضى على هذا الجناح واستولى على القسطنطينية (استنبول) وشهد العالم نهاية أكبر امبراطوريتين عرفهما التاريخ الى ذلك الحين .

وفى مجال الدولة لم يك كل جهـــد عمر فى أنه جيش الجيوش وفتح الفتوح ـــ كمـــا يقولون ـــ وانما كان عمر

ـ بحق ـ صانع الوجه الحقيقى لها .. وعمر كان ذكيا جدا .. اذكى من كل الذين يظنون أن الكيان الحضارى يمكن أن يستورد ملامحه من الخارج .. لقد عرف أن هذا الكيان لن يكتب له البقـاء والاستمرار ما لم يكن مستضيئا بالأسس الحضارية التى ارسى الاسلام دعائمها .

.. لقد بدأ عمر التاريخ بالهجرة .. وهذه ليست عملية بسيطة فى حساب الذين يدرسون التاريخ والحضارة ، اذ أن هذا الاستقلال فى « الزمان » له علاقة كبيرة باستقلال الفرد وتكوين شخصيته ..

وأنشأ عمر « الدواوين » لمـا راى كثرة ما يجبى من الغنائم ، واستجاب فى ذلك لرأى الوليد بن المغيرة .. ودخلت الدولة بذلك عصر الحضارة والتخطيط .

وفرض من الأعطيـات .. وفقـا لاعمال النـاس ومنازلهم .. فشملت سـائر من يعيش على ظهر الارض الاسلامية من المسلمين وكان لكل طفل يولد نصيبه من هذه الاعطيات . وكان عمر يقول : « والذى نفسى بيده ما من واحد من المسلمين الا وله فى هذا المال حقه أعطيه أو منعه (..) والله لئن عشت ليأتين الراعى حقه من هـذا المال قبل أن يحمر وجهه فى طلبه » (يريد وصول العطاء الى أصحابه دون أن يريقـوا دماء وجههم الحاحا) .. ونظم الرباط وحراسة الحدود .. فكان الجندى لا يغيب عن أهله اكثر من أربعة أشهر .. ونظم الأمصار فبنى الكوفة والبصرة .. وجعل لكل مصر حاكما .. وقسم الأمصار الى كور .

ونظم الجزية .. فجعل على كل ذمى غنى ثمانية واربعين درهما ، وعلى متوسط الحال أربعة وعشرين درهما ، وعلى الفقير اثنى عشر درهما .. اى درهم كل شهر .

وهكذا .. وبمثل هـذه الأعمال المحققة للشخصية استطاع عمر أن يصنع الدولة الاسلامية : ليس بفتوحاته الحربيـة فحسب وانما ـ وهو الأهم ـ بفتوحاته فى عالم المنجزات الداخليـة التى أعطت الأمـة الاسلامية مفتـاح شخصيتها وملامح وجهها الحقيقى .

عـمَر وأهـله

وأهل عمر هم كسائر النـاس الذين يخضعون للقانون الاسلامى ، ويعيشون فوق أرض اسلامية ، وليس هـذا عدلا من عمر وحسب ، وانما هو امتداد لاشعاعات النبى صلى الله عليه وسلم الذى كان يقول لاهل بيته : « **لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأحسابكم** » . ويقول لابنته فاطمة « **يا فاطمة بنت محمد اعلمى فانى لا أغنى عنك من الله شيئا** » فعمر امتداد كريم لهـذا الخيط النبوى الذى لا يؤمن أمام القانون بأفضلية أحد ، وانما بالمساواة التامة .

وقصة عمر مع ابنه عبد الرحمن خـير شـاهد على خضوع عمر وأهله للقانون الاسلامى .

وكان عبد الرحمن هذا يقيم بمصر وعمرو بن العاص وال

عليها ، فشرب الخمر مع صاحب له ، ثم ندم وذهب الى عمرو ابن العاص واعترف له ، وكأنما كانت لدى عمرو خشية من أن يقيم حدا على ابن الخليفة أمام الناس ظنا منه أن هذا قد يسىء الى الخليفة ، فجلده فى صحن داره ..

بيد أن عمر لم يقبل هذا .. وانتظر على مضض حتى وصل ابنه الى المدينة ليجد أباه فى انتظاره لا ليقدم له تحية الوصول ، أو يأخذه بالأحضان ، وانما ليقدمه الى مكان الحد من جديد على ملا من الناس .

وداخ أهل عمر وراء عمر ..

وعاشت امرأة عمر ككل امرأة .. لا تستطيع أن تأكل الحلوى ..

وعاش عمر ككل الناس يشعل قنديلا هزيلا بالليل يتحدث فيه عن أمور الدولة .. فاذا شاء محدثه أن يخرج به من شئون المسلمين أطفأ المصباح ، فهذا المصباح ملك للدولة . ومن ثم فليس من اللائق أن يستخدم فى أغراض خاصة ..

وكان عمر يجمع أهله كلما أراد أن ينهى الناس أو يوجه الناس الى شىء ويقول لهم : ان الناس ينظرون اليكم نظر الطير الى اللحم . ويقسم لهم لئن فعله أحد منهم ليضاعفن عليه العقوبة ! ..

وكان عمر يلجأ الى التجارة لقلة رزقه الذى فرضه

لنفسه من بيت المال ، وكان يقترض فيعسر فيتأخر قضاؤه ، فيأتيه صاحب بيت المال ويشتد فى تقاضيه فبدنال له عمر ويؤجله ... ومات عمر مديونا .. فلم تشغلهسكرات الموت ولا أعباء تصريف أمور الخلافة عن أن يسأل عن ديونه ويوصى بسدادها من ماله ومال أهله . وقال لابنه : ان وفى به — أى بالدين — مال آل عمر فأده من أموالهم ، والا فاسأل بنى عدى ، فان لم تف أموالهم فاسأل فيه قريشا ولا تعدهم الى غيرهم .

هذا هو عمر مع أهله ومع نفسه .. ناس كالناس . يحكمهم الاسلام الذى لا يسمح لكلمة احد بأن تعلو فوق كلمته ، ولا يؤمن قانونه باستثناءات طبقية تعيش فى ظلها طبقة حاكمة على حساب طبقات المحكومين المستضعفين .

عام الرمادة

فى نهاية السنة السابعة عشرة وفى مستهل العام الثامن عشر من الهجرة أصاب المسلمين فى شبه الجزيرة العربية قحط شديد لم ير الناس مثله .. واهتز لهذا الخطب أمير المؤمنين .. وبلغ من قسوة ذلك القحط أن الرجل كان يذبح الماشية فيعافها ويتجنبها لقبحها على الرغم من جوعه وبلواه .. وكاد الجيل — الذى تم على يديه ارساء دعائم الاسلام كفكر ودولة وحضارة — أن ينقرض ويضيع تحت ضغط الجوع الشديد .. واستنجد الناس بعمر .. واستنجد

عمر بالله على طريقـــة المتوكلين لا المتواكلين .. فلم يقف مكتوف اليد وانما أرسل الى عماله فى مصر والعراق والشام يستغيث بهم ويسألهم النجدة والعون .. ويروى التـاريخ الصادق أن عمر كتب الى عمرو بن العاص واليــه على مصر يقول له :

من عبدالله عمر أمير المؤمنين الى العاصى بن العاص :

« أما بعـــد : أفترانى هالكا ومن قبلى وتعيش أنت ومن قبلك فيا غوثاه .. يا غوثاه .. يا غوثاه ..! » .

وجاء رد عمرو :

أما بعد : فلبث (أى انتظر) الأبعثن اليك عيرا أولها عندك وآخرها عندى .. وارسل عمرو بنجدته برا وبحرا .. وتوالت النجدات من سائر الأمصار .. فبعث معاوية بثلاثة آلاف بعير من الشام ، ومن العراق بعث سعد بن أبى وقاص بألف بعير كلها تحمل الدقيق .

وبمجرد أن تلقاها عمر ســارع ينظم توزيعها على النـــاس ، ويتعهدهم برعايته ، ويدور على الاعراب الذين هربوا من قحط البادية لاجئين الى حرم المدينـــة وخليفـــة المسلمين ..

وكان عمر يصلى بالناس العشاء ثم يدخل داره فلا يزال يصلى حتى آخر الليل ضارعا الى ربه كى يكشف عن رعيته الغمـــة التى أصابتهم ثم يقوم قبـــل الفجر فيتجول فى طرقات المدينة علّه يجد مكروبا أو متأوها ..

وكان ينحر النحور ويقوم بنفسه بتوزيعها على الناس طعاما ناضجا أو نيئا ان ارادوا .. ومع اللحم الناضج يصنع الثريد ، ويوضع فوقه الزيت ..

وفى غمرة الشدائد قرر عمر أن يحرم اللحم على نفسه .. وضم الى القائمة السمن واللبن .. وكان من جراء ذلك أن غشى وجهه سواد ، وجسمه هزال ، وهو الذى كان بالأمس ابيض الوجه تعلو وجهه حمرة ..

واستمر عمر هكذا حتى اشفقت الرعية على راعيها من الموت هزالا وضعفا ..

افبعد هذا الانقلاب الخطير الذى ظهر به عمر مسمعا به آذان الدنيا حول مسئولية الحاكم يمكن أن ترى البشرية عقيدة خيرا من هذه العقيدة التى أخرجت مثل هذا الانسان ؟.

وهل يمكن أن يرى الذين يتحدثون كثيرا عن الطبقات ، وعن نظم الحكم ، وعن المذاهب الغربية والشرقية .. رجلا كعمر .. تخشى عليه رعيته من الموت جوعا وهزالا !

ان القضية ليست ثرثرة كلامية ، وانما هى واقع عملى فرض على الدنيا قانون الاسلام العظيم .

***

من أين لك هذا ؟

كان عمر يحاسب عماله حسابا عسيرا .. كما كان يحاسب نفسه ، ويحاسب أهله .. وعمر من أكثر الذين

طبقوا مبدأ « من أين لك هذا » .. فكان يقول للناس : « أرأيتم لو استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل ، أكنت قضيت الذى على ؟ فيقولون نعم ! فيقول : لا .. حتى انظر فى عمله أعمل بما أمرته ام لا ؟.. » .

وقد قيل أن أبا عبيدة كان يوسع على عياله وهو وال على الشام ، فلما بلغ عمر ذلك أنقصه من عطائه حتى شحب لون أبو عبيدة وتغيرت ثيابه وساء حاله .. فلما عرف عمر ما صار اليــه أمره قال : « يرحم الله أبا عبيدة .. ما أعف وأصبر » .. ثم رد عليه ما كان حبسه عنه .. وكان من عادته أن يجمع عماله بمكة فى موسم الحج من كل عام .. ثم يسألهم عن أعمالهم ويسأل الناس عنهم ليرى مبلغ دقتهم فى القيام بواجبهم ونزاهتهم ..

ولم يك عمر مع عماله أقل منه محاسبة مع نفسه وأهله .. بل انه مع نفسه وأهله كان أكثر وأعنف ..

.. لقد عرفنا ـــ سابقا ـــ كيف أن عمر منع زوجتـــه من ان تأكل الحلوى ـــ بحجة أن ثمن الحلوى زائد عـــن الحاجة الضرورية .. ولكى يتضح لنا اكثر كيف يعيش عمر ، وهل كان يتمتع بنوع من الأفضلية على حساب الامة أم لا ؟. لنسمع هذه القصة :

جـاء يوم جمعة .. واجتمع الناس ينتظرون الخطيب الذى هو عمر .. وأبطأ عمر عليهم .. وطال انتظارهم .. ثم خرج عمر عليهم فصعد المنبر واعتذر عن ابطائه ، وبالسؤال

عن السبب تبين أن : أمير المؤمنين كان قد غسل قميصه الذى كان لا يملك غيره ، ثم انتظر حتى يجف ..

وكان دائما يخشى أن يحيا حياة ألين من حياة صاحبيه محمد صلى الله عليه وسلم وأبى بكر الصديق ويقول :

« أن لى صاحبين سلكا طريقا وأخشى أن خالفت سيرتهما أن يخالف بى عن طريقهما .. ! » .

* * *

عمر وخالد

من مواقف عمر التى أثارت كثيرا من الاخذ والرد موقفه من خالد بن الوليد سيف الله الذى ترك فى كل ميدان جهادى أثرا ، وفى كل بلد ذكرا .. وخالد — كما نعلم — هو الذى قضى على الردة ، وفتح العراق ، وهو الذى لا يستطيع أحد أن ينكر فروسيته ، أو يجحد عبقريته فى المجال العسكرى عموما ..

ولسنا هنا فى معرض الخوض العميق فى مثل هذه المتاهات غير المجدية .. ولكيلا نذهب بعيدا نقول : ان عمر عزل خالدا لأسباب نجملها فيما يلى :

لقد خشى عمر أن يفتتن الناس بخالد ، وأن يفتتن خالد بنفسه ، وأن تضيع المبادىء بين هذين الافتتانين .. وأخطر من ذلك أن ترتبط الأمة بشخص توقف حياتها على حياته ، وموتها على موته ..

ان الأمة يجب أن تعيش لانها جديرة بالحياة ، وليست لان فلانا من الناس هو قائدها ، ومصرف أمورها ، وبطلها الذى عقم التاريخ أن يأتى تمثله .

وعمر كان يرى فى خالد بعض الزهو الذى يدفعه الى التسرع فى اتخاذ القرارات ، وان لم يكن للتسرع مسوغ .. لقد ظن خالد انه مطلق اليد فى الأمور نتيجة للانتصارات التى أحرزها فى معارك كثيرة .. ففى فتح مكة ــ نعلم أن خالدا وحده هو الذى تورط فى استخدام العنف مع أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك .

وقتل خالد مالك بن نويرة ــ بحجة رآها خالد صحيحة ــ وكان أبو بكر قد حذره ونهاه عن ذلك ــ وكذلك أخذ عمر على خالد تلك الهبات الجزيلة التى كان خالد يمنحها الشعراء الذين يمدحونه ، وخاصة جائزته العظيمة للاشعث بن قيس . وقد أثارت هذه الحادثة الأخيرة ثائرة عمر ، فقد خالف خالد أوامره حيث انه طلب منه أن يحبس ما يصيبه من المال على ضعاف المهاجرين .. فاعطاء المال للمرتزقة من الشعراء وضع للمال فى غير محله .

.. وهذه الأسباب السالفة الذكر كانت كافية لرجل كعمر بن الخطاب ليعزل من أجلها قاهر الصحراء وأعظم قواد الفتوحات الاسلامية .. خالد بن الوليد ..

* * *

شخصية عمر

نريد هنا أن نلقى الضوء على جانب واحد ذى شقين من جوانب شخصية عمر .. أولا وهو الالهام العمرى .. فعمر انسان موهوب ملهم .. ومجتهد من الطراز الاول .. ومعلوم أن القرآن الكريم لم يحرم الخمر بادىء ذى بدء ، لكنه أشار الى ضررها وأثرها فى سلوك المسلم .. تمهيدا لتحريمها ..

لكن نفس عمر العامرة بالالهام والايمان لم تكن قانعة بهذا التحريم غير القاطع .. فدعا الله قائلا : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا .. فنزل بعد ذلك قول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

ومثل آخر تضربه حياة عمر تأكيدا لمعنى الالهام .. فقد كان عمر رجلا غيورا اذا رأى منكرا لم تسمح له نفسه بالسكوت عليه ، وقد لحظ من خلال ملازمته للرسول صلى الله عليه وسلم أن نساء النبى يدخل عليهن الناس على اختلاف الوانهم وتباين طباعهم ، فساءه ذلك ، ودفعته غيرته الى التحدث مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك الأمر قائلا : يا رسول الله ، ان نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرتهن ان يحتجبن ؟ والح فى ذلك حتى ان زينب بنت

جحش زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ثارت عليه قائلة له : « اتنفذ أمرك فينا يا ابن الخطاب والوحى ينزل فى بيوتنا .. ؟ » فكان أن نزل قوله تعالى :

((واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب)) .

ودخل غلام على عمر وهو نائم ، فاستيقظ عمر وجلس فانكشف منه شىء ، فقال عمر فى أسف : وددت أن الله ينهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول علينا فى هذه الساعات الا باذن .. وانطلق الى الرسول صلى الله عليه وسلم فوجد ان آية الاستئذان قد نزلت : **((يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات))** . فخر عمر ساجدا لله شكرا !.

وقصة عمر مع أسرى بدر معلومة ومشهورة ، اذ أن عمر قد افتى بوجوب قتل هؤلاء دون مراعاة لنواحى القربى ، وراى ابو بكر خلاف ذلك .. واختار صلى الله عليه وسلم راى أبى بكر ، وهذا طبيعى ، فالرسول الكريم يأخذ دائما جانب الرفق واللين . واذا بالوحى ينزل مؤيدا قول عمر ، اذ لاصلة قربى بين الجاهلية والاسلام .. ! والغى عمر الامتيازات التى تتمتع بها طبقة المؤلفة قلوبهم .. فالله قد اعز الاسلام ، واصبح الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، ومن ثم فلم يعد هناك مقتض لوجود مثل هذه الامتيازات ، والباب مفتوح لمن يريد الدخول فى الاسلام بقلبه ولسانه ، أما المغرضون فلم يعد هناك مكان لهم .

واسقط عمر حـد السرقة في عام الرمادة .. وقال : « لا أقطع في عام سنة (مجاعة) » .. وقتل عمر الجماعة بواحد وقال : « لو تمالأ عليه ـ أى : على المقتول ـ أهل صنعاء لقتلتهم .. » لان عمر خاف أن تكون هذه سنة في الناس فكلما أراد امرؤ قتل آخر استعان بآخرين كى تتوزع المسئولية وتضيع القضية ، وبالتالى تضيع الحقوق .

ونفس الغاية وهى درء المفاسد بكل الطرق الممكنة هى التى دفعت عمر الى منع التزوج بالكتابيات .. فلو ترك هذا الباب دون قيود لتفسخت الشخصية الاسلامية ، وانحلت الأسرة المسلمة وذابت تقاليدها .

ولم يك حرص عمر على درء المفاسد مقصورا على مقاومة أسباب الفساد فحسب ، بل تعـداه الى الوقوف في وجـه ما يمكن أن يؤدى الى الفساد ..

لقد نفى عمر نصر بن حجاج ، وابا ذئب عندما سمع بجمالهما ، وخشى على النساء الافتتان بهما .

وقد يقال : ما ذنب نصر وأبى ذئب ما دام لم يتعرضا بهـذا الجمال ، ولم يفسـدا به على المجتمع ؟. لكن أيضا ما ذنب المجتمع أن يضيع وجوده كله من أجـل عضوين فقط من اعضائه .. وماذا ننتظر من عمر وهو يجوب شـوارع المدينة ليـلا ليستجيب لنداء مستغيث ، او لينجد ملهوفا ، فلا يصل الى أذنه الا صوت امرأة تقول :

هل من سبيل الى خمر فأشربها ؟
أم هل سبيل الى نصر بن حجاج ؟

فماذا يفعل عمر فى هـــذه الحال ؟.. ان عمر لا يحب الثرثرة أو الوقوع فى حبائل النظريات الفارغة .. وانما يصبح فيسأل عن نصر بن حجاج هـــذا ، فيقـــال له : انه رجل من سليم ، فيأمر باحضاره ، فما أن ينظر اليه حتي يرى رجلا من أحسن الناس وجهـــا ، وأملحهم شعرا ، فيأمره عمر أن يقص شـــعره .. فلما عاد اليه مقصوص الشعر رآه قد ازداد حسنا ، فأمره أن يعتم (يلبس العمامة) فلما رآه بعد ذلك فاذا العمامة قد زادته حسنا .

وكان الموقف بهذه الصورة ضعبا على نفس عمر .. لكن رجل الدولة يؤثر دائما العقـــل والمجتمع على العاطفة والفـــرد .. لذا اتخـــذ قراره باصلاح حال نصر واعطائه ما يكفيه .. ثم ينفيه الى البصرة بعيدا عن مجتمع المدينة ..

.. وفى ليلة أخرى ذهب عمر يجوب طرقات المدينـــة فاذا به يسمع مباراة بين بعض النسوة عن أجمل وأملح رجل يروق لهن .. وتنتهى المباراة بفوز أبى ذئب بكأس اجمل رجل فى المدينـــة .

وفى الصباح .. استدعى عمر أبا ذئب ، وأصلح حاله ، والحقه بابن عمه نصر بن حجاج .

رحم الله عمر .. العظيم .. المجتهد .. الملهم ..!!.

عمر فى القدس

كان المسلمون قد واصلوا انتصاراتهم فى الشام وتوغلوا فيها حتى أصبحوا على بعد خطوات من القدس ، ولم يجد القائمون على أمر هذه المدينة بدا من التسليم ..

وكان القائد عمرو بن العاص قد اشتد فى حصار المدينة حتى اضطر اهلهـا الى طلب الصلح مع المسلمين .. غير أنهم اشترطوا أن يأتى أمير المؤمنين (عمر) بنفسه ليتسلمها ويكتب عهدها ، ولم يجد عمر مانعـا من الحضور فغادر المدينة قاصدا القدس ..

وبمجرد أن وصل عمر أتم مع رسل أسقف بيت المقدس اتفاقية الصلح وأعطى الأمان لاهل القدس فى أنفسهم وأموالهم وكنائسهم واشترط عليهم الا يسكن بايلياء أحد من اليهود — وهذه نظرة عمرية بعيـدة المعنى أثبت التاريخ عمقها وأصالتها — .

وقد اغتبط الأهالى بهـذا الصلح .. وسعدوا بعمر العظيم . وزاد من اغتباطهم وسعـادتهم ما تسامعوا به وتناقلوه من أن عمر العظيم قد أدركته الصلاة اثناء اجتماعه ببطريقهم فى كنيسة القيامة .. وقد عرض عليه البطريق الصلاة فى الكنيسة لكنه رفض .. وكانت حجته هى الأخرى

عميقة بعيدة المعنى .. فقد خشي — كما ذكر للبطريق من أن يتخذ المسلمون صلاة عمر فى الكنيسة ذريعة يستولون بها عليها .. ويقولون : « هنا صلى عمر » .

أرأيت الى هذه السياسة التى تخترق حجب التاريخ وتبنى أسس الحضـــارات وترينــا فى الوقت نفسه عظمة السياسى العظيم عمر بن الخطاب !!.

* * *

وانتهت حيـــاة عمر

ولم يكن بوسع العداء المستمر للاسلام من جانب الكفر ان يترك رجلا كعمر يستكمل أدوار حياته على الأرض .

ولم تكن الأحقاد التى ما زالت تعيش فى صدور عبيد الفرس والروم وأتباعهما لتسكت عن عمر .

وكان عمر يمشى ذات يوم فى المدينة فلقيه غلام أعجمى مولاه المغيرة بن شعبة ، يقال له : فيروز ، ويكنى بأبى لؤلؤة . وكان هذا الفتى من سبى نهاوند ، فشكا له الغـــلام كثرة ما يفرضه عليه سيده المغيرة بن شعبة .. فسأله عمر : كم فرض عليه سيده ؟. فأجاب بأنه أربعة دراهم كل يوم .. فسأله عن طبيعة عمله ، فأجاب بأنه نجار نقاش حداد .. فقال عمر : ما خراجك بكثير ؟. ولم تعجب هـــذه الاجابة « فيروز » وانصرف مغضبا .. على أن هذه الحادثة التافهة لا تعدو أن تكون ستارا مفتعلا ومدبرا لقتل سيدنا عمر .. وأما الحقيقة فترويها لنا قصة أخرى يشترك فى أدوارها

مجموعة من الحاقدين على الاسلام .. يتزعمهم أبو لؤلؤة هـذا ..

وشخصية ثانيـة كان لهـا دور فى قصة موت عمر وهى شخصية « الهرمزان » ..

وهناك ثالث يدعى « جفينة » وهذا وذاك من الأعاجم الذين احتموا فى المدينة وعاشوا فى ذمة الاسـلام وسماحة المسلمين ..

وتتضح لنا خيوط المؤامرة من تلك القصة التى رويت عن عبد الرحمن بن أبى بكر من أنه رأى أبا لؤلؤة والهرمزان وجفينـة يتحدثون سرا فى مكان يوحى بالريبة والشـك فلما رأوه قاموا شبه فزعين فوقع من أيديهم — على حين غفلة منهم — خنجر له بريق ، واستفسر عبد الرحمن عن سر هذا الخنجر فى أيديهم فقالوا له : انهم يقطعون به اللحم .

وهى اجابة — كما نرى — عامة ونصيبها من الاقتناع ضئيل ان لم يكن معدوما .

وتروى لنا ذاكرة التـاريخ أن عمر بن الخطاب لقى أبا لؤلؤة يوما فدعاه وحـدثه قائلا : بلغنى أنك تزعم أنك تستطيع أن تصنع رحى تطحن بالريح .

فقال الغلام : نعم . فطلب منه أمير المؤمنين أن يصنع له واحدة .. فأجابه الغلام بخبث : لأعملن لك رحى يتحدث بها اهل الشرق والغرب .. وأدرك صاحب البصـيرة النافذة

والايمان الصادق ما وراء هذه الكلمات التى تحمل من الوعيد أكثر مما تحمل من الصدق وقال : لقد توعدنى العبد آنفا ..

ولم يستطع عمر أمام قانون الاسلام أن يفعل شيئا لهذا المجوسى الملعون فليس فى قانون الاسلام أخذ الناس بالشبهة أو بالظنة فالمتهم برىء حتى تظهر ادانته ولبس العكس كما يفعل الطغاة والمتجبرون .. واتخذ هذا الشقى المسجد مسرحا لجريمته .. وموعد صلاة الفجر ميقاتا لها .. وجاء اليوم المشهود .. الذى خرج فيه أمير المؤمنين عمر ليصلى صلاة الفجر كعادته .. وبينما هو يستقبل القبلة اذا بطعنات ثلاث تأتيه من الخلف وتأخذ طريقها فى قوة وسرعة الى جسده الطاهر يرسلها أبو لؤلؤة بجنون من مخبئه فى بعض زوايا المسجد مودعا اياها كل حقد .. فتصيب من ابن الخطاب مقتله ..

ويسقط أمير المؤمنين الى الأرض والدماء تنزف منه فلا يهمه الا أن يأخذ بيد عبد الرحمن بن عوف يقدمه ليصلى بالناس ثم يقول : أدركوا الكلب فقد قتلنى ، وكأنه يعرفه..!! وكأنه كان ينتظر هذه اللحظة من هذا الكلب المجوسى .

وانتقل عمر الى منزله وأخذته غشية تاه فيها عن الوجود . وقال بعض الحاضرين : أيقظوه للصلاة فقالوا : الصلاة يا أمير المؤمنين . فأفاق على هذا النداء وقال : الصلاة .. نعم الصلاة لا حظ فى الاسلام لمن ترك الصلاة .. ثم توضأ وصلى .

ولقد قال عمر لحاضريه بعد أن تأكد من أن قاتله

هو ابو لؤلؤة ؟ الحمــد لله الذى لم يجعلَ قتلى بيد رجل يحاجنى عند الله بسجدة سجدها لله ..

ولما دنت ساعة عمر بعد أن أخبره الطبيب بألا أمل فى شــفائه ، استدعى ابنـــه عبـــد الله وأمره بأن يذهب الى أم المؤمنين عائشـة يستأذنها فى أن يدفن بجوار حبيبه : الرسول صلى الله عليه وسلم وأبى بكر الصديق رضى الله عنه .. فأذنت له .

وكانت آخر كلمات عمر عندما أحس بقرب لقائه لربه ان طلب من ابنه عبد الله ـــ الذى كان يضع رأسه فى حجره . أن يضع خــده على الأرض .. فيأبى عبد الله .. ويقول لأبيه عمر : وهل فخــذى والارض الا سواء .. فيصر عمر على ذلك الى أن يستجيب ابنه له فيضع خده ، ويأخذ تبنة كانت على أرض ويقول والناس يستمعون له : ليتنى كنت هذه التبنة ؟ ! ليتنى لم أخلق ! ليت أمى لم تلدنى .. ليتنى لم آك شيئا .. ليتنى كنت نسيا منسيا ..

وانتهت حياة عمر .

وانتهت حيــاة الرجل العظيم .. لتبدأ من جــديد فى نفوسنا وفى مسار التــاريخ كنموذج أعلى للانســان ، وللحاكم المسلم .

* * *

محتويات الكتاب

***

دار العـــلوم للطباعة

القاهرة، ٨ شارع حسين حجازى (القصر العينى)

ت: ٢١٧٤٨

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٧٢/٦٠٨٨

دار الاعتصام

القاهرة ٨ شارع حسين حجازى تليفون ٣١٧٤٨

١٢ قرشا